## السينمائية العراقية ميسون الباججي:

# المقاومة هدفها صالح البلد وليس تخريبه وقتل ابنائه!

لقطة من فيلم «العودة الى بلد العجائب» (القدس العربي)

ميسون الباججي (القدس العربي)

### الفيلم التسجيلي عزز الثقة بين كاميرتي والناس

■ هل لنشاطك السياسي تأثير على خيارك الابداعي، او هل له تأثيرعلى حجم الانتاج؟

**■ ربما، بل فعلا، فقناعاتي وخياراتي السياسية والانسانية وجهت خياراتي السينمائية، في المواضيع التي انتجها واخرجها. فانا مثلا لا اقدر ان اعمل فيلماً بعيداً عن تلك الاهتمامات، بعيداً عن الناس وهمومهم ومشاكلهم. فلو طلب مني ان اعمل فيلماً ترفيهياً او كوميدياً، قد ارفض، لاني لا اقدر، ليس من الناحية الفنية، ولا من ناحية مبدئية.. فأنا احب بعض الاعمال الكوميدية والفنية من اجل الفن. لكن لا اقدر ان اعمل شيئاً بعيداً عن قناعاتي. لذا عملت افلاماً عن الحياة وصعوبتها في فلسطين والعراق. كمخرجة مستقلة قدمت بعض الاقتراحات او عروضا لمشاريع افلام عن الحياة، عن الجانب الانساني: في البرازيل مثلا او الصين او امريكا اللاتينية، بالهند وبنغلاديش. لكني لم احصل على دعم او تمويل لها.**

■ في فيلمك (العودة الى بلد العجائب ) ادنت من خلال الناس الذين التقيتهم، عمليات القتل اليومي والتفجيرات والتخريب الحاصل يوميا بالعراق باسم المقاومة. هل تعتقدين ان هناك مقاومة فعلية؟

**■ الحقيقة انا اعتبر العمل على حقوق الانسان، والعمل على البناء والتعاون لخلق وضع مستقر بالعراق، هو مقاومة. العمل النقابي خاصة في مؤسسات صناعة النفط، والعمل على رفض خصخصة الثروة النفطية، هو مقاومة. كذلك نشاط المرأة وفي ظل كل تلك الصعوبات والتهديدات هو مقاومة.**

**فالمقاومة هدفها صالح البلد وابنائه وليس قتلهم وتخريب مؤسساتهم الخدمية. فقد أعلن الشعب العراقي من البداية انه رافض للاحتلال ورافض لصدام وسياسته. كلنا نريد خروج قوات الاحتلال، ولكن لا يعني ان نخرب بلدنا ونقتل اهلنا لخروج الاحتلال! اذن هناك فوضى، فماذا ومن يحارب هؤلاء؟ لا بد للمقاومة من منهج او برنامج سياسي يقنعون الشعب به. فالمقاومة الفيتنامية استطاعت ان تهزم اقوى دولة من خلال برنامجها السياسي وحسها الوطني والانساني اولا والعمليات البطولية التي كان يقوم به الثوار.**

**اما هؤلاء خاصة من الارهابيين الزرقاويين او غيرهم، فقد استغلوا حالة الفوضى والاختلال الامني لينفذوا عمليات اجرامية بحق الابرياء. فانا اشك في ان يفجر العراقيون المساجد او الكنائس او المدارس والمستشفيات. نعم هناك عناصر مخدوعة، وهناك من يستغل حالة التذمر بين الشباب العراقي العاطل عن العمل، اضافة للعناصر التي خسرت بعد انحلال النظام السابق خاصة في صفوف الجيش. اذن اغلبها عمليات انتقام. ولا بد ان نشير الى اخطاء القوات الامريكية وضغوطها السياسية على العراقيين السياسيين، الامر الذي يزيد من حالة الفوضى واستمرار الكوارث والتدمير اليومي.**

---

**التقتها: ابتسام يوسف الطاهر**

**لندن ـ «القدس العربي»:**

ميسون الباججي علم من اعلام السينما التسجيلية في بريطانيا، تعرفنا على ابداعها من خلال فيلمها (اصوات من غزة). عرفت كذلك من خلال نشاطها السياسي الانساني، لا سيما ضد الحرب الفيتنامية، وتعاونها مع المنظمات الانسانية من اجل القضية الفلسطينية.

وخلال الحروب التي شنت ضد العراق، جندت نشاطها السياسي والابداعي من اجل العراق وطنا وشعبا، فهي من المؤسسات لجمعية (نساء ضد الحرب والحصار) التي تغير اسمها الى (نساء من اجل العراق)، اضافة الى نشاطاتها السياسية التي من خلالها تحاول توصيل صوت العراق الذي تحجبه وسائل الاعلام الاخرى. وقد وظفت ابداعها السينمائي للدفاع عن الانسان وحريته وايصال صوته المغيب اعلاميا والمضطهد سياسيا.

ولدت في واشنطن حيث عمل والدها، السياسي المعروف د. عدنان الباججي في السلك الدبلوماسي. لكنها عاشت مراحل مهمة من طفولتها في بغداد. نالت البكالوريوس في الفلسفة من جامعة لندن، ثم درست صناعة السينما في انكلترا في مدرسة سيلد للسينما ونالت الشهادة العليا في الاخراج من جامعة لندن.

عملت معدة ومنتجة لافلام وثائقية وتسجيلية ودراما للتلفزيون البريطاني. اعملت دروساً بالاخراج وإعداد افلام الفيديو في غزة وفي معهد القدس السينمائي في فلسطين.

اشتهرت بافلامها التسجيلية التي عرضت في مهرجانات عالمية ونالت جوائز مثل الشريط الاحمر عن فيلمها (اصوات من غزة) في مهرجان الفيلم الامريكي في سان فرانسسكو.

والجائزة الاولى في الاخراج لفيلمها (رحلة ايرانية). وفي التسعينيات انتجت واخرجت (اصوات من المنفى) عن المرأة العراقية ومعاناتها خلال حكم صدام وحروبه والحصار.

**في عام 2004 حققت جزءاً من طموحها لخدمة وطنها العراق، فأسست مع زميلها قاسم عبد مركزاً للتدريب على الانتاج السينمائي وتصوير الافلام مجانا. فقد قررت العودة محملة باحلام ومشاريع عديدة لتقدمها لابناء العراق المتعطش لكل ما حرم منه فترة حكم صدام وما جرته من حروب وحصار ادت إلى عزل العراق عن العالم.**

**وعلى الرغم من انها كانت وما زالت ضد الحرب وجدت انها لا بد ان تفعل شيئاً ايجابياً وقد صار الاحتلال واقعاً لم يتمكن من منعه احد، خاصة والقائد نفسه هرب من المعركة.**

**فلم تبق تدين وتتفرج على البعد. فدخلت العراق مع والدها د. عدنان الباججي الذي اصر بالرغم من اعوامه الثمانين، مدفوعا برغبته الصادقة في تقديم خبرته وما تبقى له من سنين، لبلده. ولكن لانه من القلة من القادة السياسيين الذين عارضوا صدام والاحتلال، حاولت قوات الاحتلال ان تلعب لعبتها لابعاده باي طريقة. تمكنت في زيارتها تلك من تصوير واعداد واخراج فيلمها التسجيلي (العودة الى بلد العجائب) الذي قدمته في المهرجان الاخير للفيلم العراقي التسجيلي في لندن.**

**كان اكثر الافلام قربا لنا نحن المغتربين الذين كنا مثلها متلهفين للعودة لارض الطفولة.**

**كانت الكاميرا التي صورت الفيلم كأنها لنا، نحن الذين نحملها، ففي ذلك الفيلم كان لميسون المرأة العراقية بكل حنينها للناس هناك لذكريات طفولتها، حضور قوي. لذلك كان الفيلم اقرب لنا نحن العراقيين حيث رأينا فيه تجربتنا ولهفتنا لعمل شيء من اجل الناس هناك. ورأينا من خلاله العواطف والحذر الذي فرضه الوضع الامني. والذي فرض عليها لاول مرة ان تصور الفيلم وحدها، دون فريقها من مصورين ومساعدين، الذين اعتادوا مرافقتها. وعلى الرغم من ذلك نجحت بنقل صورة لم نعرفها، او لم يعرفها المشاهدون غربيين كانوا او عرباً. صورة المعاناة والاصرار من قبل بعض السياسيين لانجاح مشروع الدولة العراقية، لانجاح مشروع الدستور. فنتابع د. الباججي ومساعديه وعطا عبد الهادي ومراحل تحضير الدستور وسهرهم الليالي وكأنهم يسابقون الزمن خوف ان يخطف الموت احدهم، قبل تحقيق حلمهم بتقديم ما يقدرون عليه لبلدهم العراق.**

**وصورة المنطقة الخضراء بجدرانها الاسمنتية العالية المتداخلة المزروعة في كل الشوارع وكأنها تصر على ان تبقى سجنا كما كانت من قبل لعناصر صدام ورجالاته، حيث كان دخولها محرماً على غيرهم.**

### العباءة السياسية المرفوضة

كان فيلم «العودة الى بلد العجائب»، لميسون المغتربة العراقية، اكثر مما هو لميسون المبدعة الفنانة، فكانت بصوتها وهي تحاور من تلتقيهم. نلمح احراجا وارتباكا حيث تركت وطنها طفلة. فنلمح عفوية في الحوار مصحوبة بالخوف والقهر الذي يصاحب كل خطواتنا. وكأنه قدر العراقي ان يعاني الغربة داخل وطنه وبعيدا عنه.

وعلى الرغم من انشغالاتها العديدة ونشاطاتها السياسية الانسانية، التقيتها في احد المقاهي الهادئة النادرة في لندن وخصتنا بحوار او دردشة، للحديث عن تجربتها السينمائية وهمومها العراقية:

■ ذكرت بالندوة التي عقدت بعد عرض فيلمك (العودة الى بلد العجائب) ان لديك مشروعاً روائياً تعدينه وستخرجينه ايضا، هل هذا هو عملك الروائي الاول؟

**■ هذا اول عمل روائي ككاتبة ومخرجة، لكني اشتغلت على اعمال روائية من قبل كمعدة ومنتجة، كذلك كتبت بعض اعمال دراما للتلفزيون البريطاني. ولدي عمل روائي سينمائي كتبته منذ فترة عن إمرأة عراقية في المنفى تلتقي بلاجئ من امريكا اللاتينية، لكني اجلت تنفيذه.**

**واشتغل الان على فيلم روائي جديد عسى ان انجزه باقرب وقت..هو قصة متخيلة، عن مجموعة عراقيين يصور حياتهم بشكل مباشر ومتابعة يومياتهم على الواقع، دون استخدام ديكور او ممثلين محترفين.**

■ هل هو مزيج بين العمل التسجيلي والروائي؟

**■ ممكن ان نقول عنه ذلك.. ولكنه قد يصنف على الواقعية الجديدة.. التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، حيث ظهرت تجارب في السينما الايطالية تمزج بين الواقع والرواية، سموها الواقعية الجديدة. ( NEO REALISM) حيث تصور المشاهد في اماكنها الحقيقية.**

■ فيلمك «اصوات من المنفى» الذي عرض على القناة البريطانية الرابعة، نجحت فيه باعطاء او توصيل صورة عن معاناة العراق ومعاناة المرأة العراقية بشكل خاص، في زمن صدام والحروب التي قادها خاصة حرب 1991والحصار. هل تفكرين بعمل مماثل عن العراقيين الذين انتظروا العودة للوطن وبعضهم عاد واستشهد، وبعضهم شعر بالغربة مجسمة في ظل الفوضى والخوف والتهديد فرجح لغربته الاولى؟

**■ الحقيقة انها فكرة جيدة، لكن انشغالي الان بالرواية الحالية جعلني لا افكر بمثل هكذا المشروع.. لكني سأدرس هذه الفكرة، فقد التقيت بكثير من النساء العراقيات اللواتي كن ينتظرن فرصة العودة للوطن بفارغ الصبر، ولا ادري ان كن عدن ام لا.**

■ المهرجان كان حدثا رائعا بعد طول جذب وترقب، فقد شعرت ان الافلام التي عرضت كأنها تكمل بعضها وهي تفتح نوافذ متعددة لنا وليس للمشاهد الاجنبي فقط. اي من هذه الافلام تودين مشاهدته مرة اخرى؟

**■ كنت سعيدة بنجاح المهرجان وقد اعجبتني كل الافلام بعضها كنت قد شاهدته من قبل في التلفزيون البريطاني. الاهم سعادتي بافلام الشباب من داخل العراق، الذين استطاعوا ان ينتجوا تلك الاعمال وسط ظروف القمع والحرب وقبلها الحصار، ووسط الظروف الامنية المرعبة والحقيقة هذا عزز لدي الامل بان هذا الكابوس سينتهي ما دام شعبنا قادراً على التحدي والابداع تحت اي ظرف.**

**كذلك كان المهرجان فرصة للحوار بين جيلين او فئتين من السينمائيين، جيلنا المتغرب من عقود والمتعطش للاقتراب من الوطن، من تجارب الشباب والمبدعين هناك. فنقدر ان نقول، اننا، نحن المغتربين، كنا محظوظين حيث كانت لنا فرصة الاطلاع على السينما العالمية ومواكبة تطور صناعة السينما في اوروبا وتعلمنا من مختلف التجارب السينمائية اوروبية، يابانية روسية، ايرانية وصينية ومن امريكا اللاتينية وامريكية.. الخ. فالمنفى كان صعبا خاصة بالنسبة للفنانين فقد خسرنا الكثير ببعدنا عن الوطن، لكن من ناحية اخرى كان مفيدا لحد ما باكتساب تلك الخبرات التي اعتقد انها مهمة جدا للسينمائيين الشباب في العراق الذين هم ايضا لديهم الكثير لنتعلم منهم، عن الحياة الحقيقية في العراق، وكيفية التعامل مع الواقع الذي لم نعشه، او كيفية ايصال الصوت العراقي الحقيقي، لذا لا بد من التعاون والعمل معا.**

■ لا تنسى انهم على الرغم من عزلتهم بسبب نظام صدام والحصار، وكوارث الاحتلال اليوم، هناك مبادرات رائعة لكنها مبادرات فردية، اضافة الى عدم وجود سينما عراقية على الرغم من انه يقال ان اول ستوديو سينمائي عربي انشئ في بغداد في الاربعينيات!

**■ شعرت من خلال لقائي بالشباب ان لديهم حماساً واصراراً على عمل شيء خاصة وكل منهم له قصة، فهناك الاف القصص العراقية التي تشكل مادة سينمائية غنية، وبامكانهم استخدام الكاميرا لمختلف وسائل الابداع. ولكن الان لا بد لهم من العمل من البداية، من الصفر، فطوال السنوات التي مضت حرموا من الاطلاع على السينما العالمية، او متابعة التطور الثقافي بكل اشكاله، لم يتعرفوا على السينما الا من خلال الافلام العربية المصرية، بسبب الحصار والتعتيم. لكن حماسهم يجعلهم متعطشين لكل معلومة او مبادرة، فقد لاحظت من خلال تجربة مركز التدريب ان هناك انقطاعاً كاملاً بينهم وبين صناعة السينما في العالم. وقد اعتادوا على استخدام الكاميرا كوسيلة للدعاية السياسية.. من ناحية اخرى لقد استفدت من تجربتهم. لقد استفدت منهم الكثير.**

■ قد تكون حالة الحماس التي ذكرتيها هي حالة تحد لمظاهر القمع والتهديدات التي تشعبت مصادرها وتكاثرت وسائلها البربرية. فقد لمست من خلال زيارتي ان هناك تحدياً لكل التهديدات بكل وسائلها الشريرة، وهناك اصرار على الحياة من خلال الامل والدفاع عن القيم الانسانية.

**■ صحيح.. فقد توصل البعض منهم الى قناعة وايمان بان الامل والفرح هو سلاح ايضا بوجه اعداء الحياة، وسط كل تلك الفوضى والاحقاد وغياب من يحتضنهم ويقدر جهودهم. ولكن لا يجوز ان نبالغ بالتفاؤل.. فهناك حالات من الاحباط تسببت بها حالة الخوف والوضع الامني المرعب.. فبعض الشباب يجدون انفسهم متحمسين لعمل ما، وبعد انجازه بنجاح يصطدم بواقع القتل اليومي والتخريب، فيصاب بحالة من اليأس فكثير منهم يسأل ما الفائدة؟ او ثم ماذا؟**

■ اذن لا بد من الاسراع بوضع حلول ونهاية لذلك الوضع الشاذ، حتى لا تصل حالة اليأس الى كوارث اخرى... لذا اتساءل، بما انه للسينما حضور فعال وتأثير كبير، هل هناك امكانية لخلق عمل سينمائي جماعي تطرح فيه هموم العراق وابنائه؟ أعرف ان العمل السينمائي عمل فردي، ولكل مخرج اسلوبه في العمل السينمائي.

**■ الحقيقة انا اعتبر العمل السينمائي عملاً جماعياً وليس فردياً.. فالعمل الذي انجزه، لا بد من طرحه على فريق العمل بعد التفكير به، فالمصور هو فنان ايضا وله رؤياه واسلوبه، ويترك بصماته على العمل ايضا. لكن الصعوبة تكمن في جمع اربعة او خمسة مخرجين لعمل واحد.. فكل واحد له اسلوبه ورؤياه وطريقته بالعمل...ولو اني شاهدت قبل مدة فيلم بعنوان (تكتس) Tickets.**

**كان عملاً جميلاً وناجحاً اشترك به ثلاثة مخرجين، ايطالي وانكليزي وايراني، على الرغم من ان كل واحد احتفظ باسلوبه وطريقته بالعمل مع ذلك نجح الفيلم.. كان عن رحلة بقطار يمر باكثر من بلد، لذا كل مخرج اشتغل على جزء ليكمله المخرج الاخر..**

**قد نفكر في ذلك يوما..في عمل مماثل.**

■ عن قطار العودة..مثلا؟

**■ إن شاء الله.. ولكن الصعوبة في ان تجمعي بعض الفنانين، كل عاش في ظروف وبلد مختلف واكتسب خبرة وتجربة تختلف عن تجربة الاخر..صحيح، انا عراقية في تفكيري وجذوري وهمومي ايضا، لكن سينمائيا اجد نفسي اقرب للاخر الذي قد يكون ايطالياً او فرنسياً او مغربياً.. فقد اتقاطع مع غيري من فنانين ومبدعين عراقيين، بسبب الدراسة والتعايش مع تجارب الاخرين من الفنانين في اوروبا.**

**ثم هل تعتقدين بنجاح عمل كهذا؟ هل فيه شيء ايجابي يخدم قضيتنا، او فيه اضافة للحركة السينمائية؟**

■ اعتقد ذلك، وان كنت لااعرف شيئاً بصناعة السينما. اعرف ان هناك بعض الروايات كتبت بقلم اكثر من كاتب. فقد يضيف كل واحد للاخر. ويبقى كأي عمل اخر، معرضاً للنجاح او الفشل. فهناك افلام لمخرجين عباقرة وخصصت لها ميزانية هائلة مع ذلك فشلت! ولكن فيلم (تكتس) الذي ذكرتيه، نجح كما قلت، حسب وجهة نظرك كسينمائية. لنحلم اذن، فقد ينجح هكذا مشروع ويكون نقلة او خطوة كبيرة في مسيرة السينما العراقية، خاصة اذا كان الكل توحدهم فكرة واحدة هي العراق.

---

# تداعيات

## كهارب من مذبحة إفريقية

**سعيد بوكرامي***

■ في هذا المنفى الأحمر وجدت في القراءة عزائي الوحيد. فلا شيء يسمّد قلبي المتصحر، ولا جدوى من رقص فراشات فوق طلح أو حول أكاسيا أو فوق أزهار الصبار. كل شيء يتعرى في هذه الصحراء. العواطف تتيبس والأحاسيس تبلى. وحتى التلال الرملية الرائعة الصامدة هناك تتعقب الغمام في رحلة أبدية مرهقة. كل هذا الجمال المتوحد بالعزلة والصمت لن يطفئ شغفي في اقتفاء رائحة البحر والسمك والأصدقاء خصوصا وأن سماء سوداء انهارت أخيرا كسقف كان يضغط ويضغط في انهيار وانهيار مستمر بأعصاب المغاربة الحقيقيين.

خطرت ببالي كلمات سولجنستين في إحدى حواراته التي أجراها عقب فوزه بجائزة نوبل:

في الخامس من آذار (مارس) 1953 خرجت لأول مرة إلى الشارع، أخيرا انعتقت وإن كنت ما زلت محاصرا. خرجت يومها على مضض أمام إلحاح عجوز صماء أيقظتني باكرا وطلبت مني النزول للتحقق من النبأ المذاع من طرف الأبواق. كان ستالين قد مات. وبعدها بأيام استدعيت إلى قسم الشرطة حيث طلب مني التوقيع على وثيقة نفي المؤبد لكنني رفضت التوقيع.

وفي 1956 وجدت نفسي منفيا إلى تخوم بعيدة جنوب شرق البلكاش وبالضبط في الأل وهي قرية تتارية تابعة لكوك ترن. مع ذلك كنت راضيا لأنني سأجد على الأقل عملا كمعلم للرياضيات. هناك كتبت (بيت ماتريونا). هذه القصة كتبت في 1956 وليس في 1953 كما سجل عليها. كنت حينها أصارع الموت ولزمن طويل، وفجأة توقف نمو السرطان المتزايد. لا يمنعني اليوم من العيش لقد انحل وغير طبيعته.

أعرف أن الكتابة عن الذات بسيطة لهذا فكرت أن الأهم والأفيد هو أن أصف مصير الاتحاد السوفييتي من خلال كل التراجيديات التي عاشها. وكانت أعمقها تلك التي عاشها إيفان دنيسوفيتش. عندما كنت في السجن قررت أن أحكي يوما عاديا من حياته. كان تولستوي يقول إن الحياة الأوروبية منذ عدة قرون يمكن أن تنفع في تصميم بعض الروايات. لكن أيضا يوم واحد من حياة أي مزارع بسيط يمكن أن ينفع.

حبيبتي ف

اليوم تواصلت بمجموعتي القصصية الأولى (تكرم الناشر وبعث لي بعض النسخ) أما الباقي فلن أعلم عنه شيئا إلى يوم الحساب إن شاء الله. لا أدري كيف يفكر هؤلاء الناشرون؟ يعلمون أنك ذبحت روحك وتركتها بين أيديهم تحتضر ومع ذلك يقبرون جسدك معها. أغلبهم مجرد سماسرة لا غير وإلا لكان الكتاب العربي بألف خير ويوجد في كل مكان من العالم. تنشر الكتاب بوساطة أو على حسابك ثم يكدسونه في مستودعاتهم إلى أن تأكله العثة. منذ منتصف الثمانينيات وأنا أنشر كتاباتي بمعدل قصة في كل عام، واليوم تأتي اللحظة المنتظرة غير أنها باردة ودون طعم. كنت أتصور أن طباعة الكتاب الأول كما لذة الحب الأول. لكنها جاءت بمشاعر قلق عنيف. عزائي الوحيد أني سأسافر وألاقيك في مأوانا الحبيب (العريشة). فقد لحقته دعوتان لتوقيع الكتاب: الأولى في الخميسات والثانية في ورزازات. هناك من لا يعترف بمثل هذه الدعوات وأنا متأكد أني سأدخل معه في صراع فيودالي وسيرفض كعادته منحي رخصة التغيب وسأرفض بدوري المكوث، فليذهب إلى الجحيم إذن وعقليته الديناصورية.

عند مدخل العزلة
خطاطيف الطين
تموت
بلعنة الجدب
وعواصف المساء
العزلة نقاهة
من وباء الزحام
تقدمي أيتها الصحراء
تفكيري حمم تتدفق

جاذبية تحاصر الجسد
لا أحب طيورا
رهنت أجنحتها
واعتنقت المشي

كهارب
من مذبحة إفريقية
تلاحقني
ضباع الليل
وحين أنظر خلفي
تنهار أنيابهم
المستعارة.

---

* كاتب من المغرب

---

قص

# وحيداً ذات ليلة

**جمال القيسي***

■ الوحدة بحر يلعب به، الكآبة انشوطة تخنقه، انه لم يبرح منزله منذ خمسة أيام، ليس به رغبة في رؤية أحد.. لا يجرؤ على الدنو من الكتب. بات يكرهها.. ولم يرد على أية مكالمة ولكنه يبقي هاتفه يطلق رنينه حتى يخفت كشمعة انتهت.

لم يجب أحدا... أرقام يعرفها وأخرى لا يعرفها....

كان يستجير بالحبوب المنومة ولم يتجاوز تحركاته في تلك الأيام سوى المطبخ والحمّام.

ويعود الى السرير.. الزمان غير معروف.. غالبا ما كان يجهل هل الوقت ليل أم نهار إن أسدل الستائر وأغلق الاباجورات.

وأحيانا قليلة.. حين كان يصل الى المطبخ لتناول الحبوب المهدئة والمنومة وجرعات الماء وجرعات الخمر خبط عشواء كان يفتح باب الشرفة لدخول الهواء لطرد ضباب السجائر لا لاستنشاق الهواء.

كان لا يدهشه بياض نهار ولا سواد ليل، وما همه إن كان الوقت ضحى أو فجرا أو قبيل المساء أو بعد منتصف الليل أو رابعة النهار.

يقينه ان النوم أكثر رحمة من الواقع فمهما حمل من كوابيس أو احلام فأجمل ما في ذلك انه لا يتذكر منها شيئا.

يصحو ولا يدري كم نام، يدلف الى الحمام يغتسل فيما العرق يجلل جسده فيغتسل بالماء البارد ثم يأخذ ما يحتاج ليواصل التواصل مع النوم.. يعود الى سريره ينام عارياً متدثراً بغطاء ثقيل أو دون غطاء.

تحسس رأسه المثقلة وتناول مضادات الصداع.. بعد هذه الأيام لسعه البرد وأصابته آلام شديدة في أمعائه، ومعدته أخذت تعضه، وعلا لهاث صدره فلام نفسه وكف عن اعمال أيامه الخمسة لساعات... تسلل النوم الى جفنيه دون عناء.

استيقظ على رنين هاتفه الذي بقي مصرا على إبقائه مفتوحا، كان رقما لا يعرفه.. ترك الرنين ينتهي دون ان يجيب، ثم بعد قرابة ساعة جاء صوت رجل مسن ـ هكذا قدرّ ـ حين أجاب ولا يعرف السبب في أنه رغب في الرد على هذا الرقم غير المعروف.

بصعوبة تكلم، استغرب من نفسه انه لم يتكلم منذ خمسة أيام سوى بضع كلمات.. بعضها كان مقاطع شعرية.. يتذكر انه غنى لنفسه وبكى ذات ليلة أو ليلتين وربما ثلاث.

الرجل على الطرف الاخر قال وكأنه يراقبه منذ ابتدأ (عزلته المختارة).

ـ لا تقلق.

ـ عفوا.

أجابه مستنكراً وهو متأكد من أن الحزن قد هدّ كل قواه إلاّ العقلية.

أجابه بهدوء حكيم:

ـ قبالة الفندق المجاور سيارة حمراء بانتظارك منذ وقت غير قصير. إذهب وستأخذك.

ـ عفوا.

بهدوء غير مريب أضاف:

ـ افعل ما قلته لك. وكن مطمئنا يا بنيّ.

هل لعبت اقراص المنومات والمشروب والكوابيس بعقله ؛ كلا هو على يقين من ذلك. ليس يدري كيف ارتدى ملابسه وخرج.

كان الوقت ليلا، قدرّ انه بعد منتصف الليل. وعند قبالة الفندق لمح السيارة الحمراء، اقترب منها وكان خلف المقود امرأة رقيقة الملامح، رحبت عيناها به ولم ترد تحيته فهو لم يلق بتحية تسمع.

سارت السيارة في هدوء ولم يسأل الى أين وجهتها ولم تفصح هي عن ذلك.

كيف يقولون بأن النساء ثرثارات؟ سأل نفسه لما طال صمتها والطريق.

عجلات السيارة تجوب طرقات يعرفها ثم أخذت تغوص في منعطفات وأماكن لا يعرفها تماما، ها هي ابتعدت عن الأماكن التي يعرفها.

اختلفت عليه الأماكن.. وبات يقترب من أحياء شعبية وبيوتات يخيم عليها البؤس. كاد يسألها الى أين، لكنها بهدوء اوقفت السيارة. واطفأت المحرك وقالت بشبه شفقة وهي تهم بالنزول:

ـ تفضل.

نزل من السيارة وكأنه يعرف أنهما وصلا والى أين هو ذاهب، وما مرد ذلك الا قناعته الراسخة بأنه تحدث له دوما أشياء غريبة لا تدهشه ولا تخيفه ولا تؤثر فيه.

عند باب بيت بائس حيث الروائح العطنة تزكم الانوف. هبط عدة درجات. بعد نظرة وادعة منها طلبت منه ان يتبعها. فتبعها.

قرب باب خشبي كبير وقفت. فتحت الباب امرأة في العقد السادس، تبدو عليها امارات الريبة ولمعت في عينيها فرحة منتصر ؛ بصوت واثق قالت تطلق عبارتها شبه الأمر:

ـ ادخل.

فدخل وغادرت المرأة الرقيقة دون أية عبارة.

وقف ينتظر نهاية الأمر. سألته جادة بطريقة من يقول أجبني بصراحة:

ـ هل تؤمن بالسحر؟

أجابها صادقا:

ـ كلا.

لم يبد عليها أي تأثر من جوابه.

قالت بثقة كبيرة:

ـ كيف أحضرتك إذن الى هنا؟

بقرف أجابها:

ـ انا حضرت بإرادتي.

سألته متحدية:

ـ إذا هل تستطيع العودة؟

دون خوف وبنزق:

ـ طبعا.

استشاطت غضباً في عينيها فكتمته وفحت كأفعى:

ـ ارجع ان استطعت.

حاول ادارة ظهره ليخرج، فلم يستطع. جلجلت ضحكتها. وهمست بنبرة متحدية:

ـ أرأيت؟

ساوره خوف لأول مرة وفكر..

لكنها قطعت تفكيره بلهجة آمرة وان لم تخلُ من شفقة.

ـ قل لي ماذا أردت منذ عبارتك الاولى «الوحدة بحر يلعب به» ولا تكذب فاني لن أساعدك.

أرتج عليه. أجابها كتلميذ خائف.

ـ كنت أريد كتابة قصة قصيرة ولم افلح في وضع نهاية لها.

ابتسمت. وزالت ملامح الريبة عن وجهها وقالت كمعلم:

ـ لا تجعل النهاية انتحار البطل، ولا صحوته من كابوس.

سألها بلهفة:

ـ كيف انهي القصة.

أجابته منهية الحديث:

ـ القصة انتهت

---

* قاص أردني